

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

هذه فاتحة سورة الرعد المدنية.

و﴿الْمَرْ﴾ هي من الحروف المقطعة، التي افتتحت بها بعض السور، وقد تحدثنا عنها سابقاً، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه السورة آيات بينات من الكتاب، وهو القرآن الكريم، ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ كله يا محمد ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه، ولا جدال حوله، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ من أهل مكة وغيرهم لا يثقون أنه أنزل إليك من ربك، ولذلك: فهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بنبوتك.

وبعد هذه المقدمة يسوق الله عز وجل الدلائل على قدرته، وعلى ضرورة الإيمان به من العالم العلوي، فيقول:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

أي: هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي ينبغي الإيمان به، والخضوع له، هو ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ كما ﴿تَرَوْنَهَا﴾، وذلك دليل قدرته عز وجل ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله، من غير تكيف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

﴿وَالَّذِي سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بقدرته؛ لمنافع عباده، ومصالح بلاده، و﴿كُلُّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عنده، وهو وقت انقضاء الدنيا بقيام الساعة، وذلك: دليل قدرته عز وجل.

وهو الذي ﴿يُذِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي: أمر ملكوته كله، بما فيه ومن فيه، وهو الذي ﴿يَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي: يبينها ويوضحها، ويرشد إليها، سواء كانت الآيات المنظورة، أو المسطورة.

وكل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبَّكُمْ﴾ أي: بالإيمان به، واليقين بالرجوع إليه ﴿تُوقِنُونَ﴾ فتعملون بموجب هذا الإيمان، وتستعدون لواجب هذا اللقاء. ثم يسوق عز وجل أيضًا: دليلاً على قدرته، وضرورة الإيمان به من العالم السفلي، فيقول:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣) أي: ﴿وَهُوَ﴾ الله الذي ينبغي الإيمان به، والخضوع له، هو ﴿الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ طولاً وعرضاً.

﴿وَالَّذِي جَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض، جبلاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ ثابتة في أماكنها ﴿وَأَنْهَارًا﴾ تنتفعون بها، وخلق ﴿مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ﴾ أصنافاً، وأنواعاً، وألواناً، وهو الله الذي ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: الأرض من كل زوجين اثنين السالب والموجب، والذكر والأنثى إلى غير ذلك.

وهو الله الذي ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ أي: يلبس النهار ظلمة الليل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ كله ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالة على قدرة الله وعظمته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيهندون. كذلك: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرَعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤)

أي: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ كذلك من دلائل قدرته: أنه توجد ﴿قُطْعٌ مُتَجَوِّزَاتٌ﴾ في المكان، ولكنها مختلفات في المواصفات، فهذه سوداء، وهذه صفراء، وأرض رقيقة وأخرى سميكة إلى غير ذلك، وفي الأرض كذلك من دلائل قدرته ﴿جَنَّتٌ﴾ حدائق وبساتين ﴿مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرَءٌ وَخَيْلٌ﴾ بعضها ﴿صِنَوَانٌ﴾ أي: لها فروع كثيرة وأصل واحد، وبعضها ﴿غَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ أي: لا فروع لها، والكل مع اختلاف أنواعه ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ ومع ذلك فالطعم مختلف، واللون مختلف، والشكل مختلف، كما أننا ﴿نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ فهذا حلو، وهذا حامض.. إلخ.

حقًا: ﴿إِن فِي ذَلِكَ﴾ كله ﴿لَآيَتٍ﴾ دالة على قدرته سبحانه، وعظمته ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ هذه الدلائل؛ فيهتدون، فيؤمنون.

هذه كلها دلائل واضحة أمامهم على قدرة الله عز وجل، ومع ذلك: فلهم مواقف في غاية الغرابة والتعجب، ومن ذلك مثلاً: إنكارهم البعث. يقول الله تعالى:

﴿وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَأْتِ خَلْقٍ حَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

يعني: ﴿وَإِن تَعَجَّبَ﴾ يا محمد من تكذيب الكفار لك، وعدم إيمانهم بقدرة الله عز وجل ﴿فَعَجَبٌ﴾ كل العجب ﴿قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ بعد الموت ﴿أَلَمْ نَأْتِ خَلْقٍ حَدِيدٍ﴾ أي: بعث مرة أخرى، وبذلك: فهم ينكرون البعث واليوم الآخر بما فيه من حساب وثواب وعقاب.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين يكذبونك، وينكرون قدرة الله، ولا يؤمنون باليوم الآخر هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ إذ لو كانوا يؤمنون به لآمنوا باليوم الآخر.

﴿و﴾ هم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين توضع ﴿الْأَغْلُلُ﴾ وهي القيود ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ هم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ كذلك، و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مقيمون لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها أبدًا.

ومن مواقفهم العجيبة أيضاً: أنهم يستعجلون العذاب استهزاءً، يقول الله تعالى:

﴿وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ٦﴾

أي: هؤلاء المكذبون المعاندون من شدة كفرهم ﴿يَسْتَغْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهي العقوبة، فقد قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] مثلاً.

وذلك طلبهم ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ وهي العاقبة والنجاة من غضب الله، ولم يعتبروا بما نزل من العذاب بمن قبلهم، حيث إنه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: سبقت ومضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ وهي العقوبات الشديدة، التي جعلت المكذبين قبلهم عبرة ومثلاً.

وعلى كل حال فهم لا يعلمون، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ ولذلك لم يوقع بهم العذاب سريعاً مع تكذيبهم.

ولكن في الوقت ذاته ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يفلت منه معاند، ولا ينجو من عذابه هارب.

ومن مواقف هؤلاء الكافرين العجيبة أيضاً: أنهم يطلبون منك آية، مع أن الآيات المنزلة عليك كثيرة، يقول الله تعالى:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ٧﴾

أي: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تعنتاً وعناداً ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلاً ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ علامة تؤيد صدقه ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ الذي يدّعيه.

لا تهتم بما يقولون، وليست الآيات وفقاً لهواهم ﴿إِنْمَّا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿مُنْذِرٌ﴾

لهم بالعذاب، ومخوف لهم منه، وناصح لهم بالهداية، ﴿وَمَنْ قَبْلَكَ كَانَ﴾ ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يهديهم، ومعه آية تخصه، وأنت معك الآيات والآيات، ولكنهم لا يهتدون..

ولم ينزل الله تعالى عليهم آية مما اقترحوا، حيث إنهم اقترحوا للعناد وليس للاسترشاد وطلب الهداية، وإلا فإن الله قادر على إنزال ما اقترحوا بدلالة: كمال علمه سبحانه، وقدرته عز وجل، وشمول قضائه وقدره، حيث بين ذلك قائلًا:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ﴿٨﴾

يعني: هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي لا يؤمنون به ﴿يَعْلَمُ﴾ وحده ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ أي: من جميع الإناث، يعلم: عدده، ونوعه، وجنسه، وحاله، ووضعه، ومصيره بعد ذلك.. إلخ، ويعلم سبحانه وتعالى كذلك ﴿مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ ما تنقص الأرحام ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ من هذا الحمل أو ذاك. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ﴾ سبحانه، من هذا وغيره ﴿بِمِقْدَارٍ﴾ بتقدير دقيق، وعلم محيط، ومن الضروري أنه من كان كذلك: فهو يعلم الحق، ويهدي إليه. فهل من مستجيب؟ وهو سبحانه أيضًا:

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ ﴿٩﴾ ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ﴿١٠﴾

أي: هو الله الذي لا يؤمنون به ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾ وهو كل ما غاب عن الخلق ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يشاهدونه ويعرفونه كذلك، وهو سبحانه ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن، الجليل القدر، الذي لا يُماثله شيء، وهو أكبر وأعظم من كل شيء ﴿الْمُتَعَالِ﴾ المترفع عن كل شيء.

﴿سَوَاءٌ﴾ في علمه سبحانه ﴿مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ﴾ منكم ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ حيث إنه يسمعه، ولا يخفى عليه منه شيء، فهو:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿و﴾ سواء في علمه سبحانه ﴿مَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِاللَّيْلِ﴾ لا يراه أحد،
﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: ذاهب في طريقه جهارًا نهارًا.

ومن الضروري أنه مَنْ كان كذلك: فهو يعلم الحق، ويهدي إليه فهل من مستجيب؟
وهو سبحانه أيضًا يقول:

﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ
مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ
مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١١)

أي: جعل الله لمن أسرَّ القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل، ومن هو سارِب
بالنهار، جعل ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ﴾ أي: جماعات من الملائكة تتعاقب في حفظه ﴿مِّنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ﴾ من أمامه ﴿و﴾ حفظه ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾.

يعني: مهمتهم أنهم ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: يحفظونه بأمر الله حتىَّ يسلمونه
للذي قَدَّر الله له.

ولذلك فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ فيسلمهم نعمة، أو يُنزل بهم نقمة ﴿حَتَّىٰ
يُغَيِّرُوا﴾ هم ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بالمعصية، أو الطاعة.

كما أنه عز وجل ﴿إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ نقمة، أو عذابًا يستحقونه ﴿فَلَا مَرَدَّ
لَهُ﴾ من أحد، أي: فلا يمنعه أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ﴾ في هذه الحال ﴿مِنْ وَالٍ﴾
يتولَّى أمورهم، ويدفع عنهم ما قَدَّر لهم. كما أنه سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١٢)
﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ (١٣)

أي: ﴿هُوَ الَّذِي﴾ الله، الذي لا تؤمنون به ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ في السماء،
﴿خَوْفًا﴾ أي: تخافون منه أي: يهلكهم ﴿وَطَمَعًا﴾ أي: تطمعون في نزول المطر

معه، ﴿وَ﴾ هو - كذلك - الذي ﴿يُشِئُ﴾ أي: يخلق ﴿السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي: المحملة بالماء، تنتفعون به.

﴿وَ﴾ هو سبحانه الذي ﴿يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ كما يسبح كل شيء في الوجود بحمده سبحانه، ﴿وَ﴾ هو الذي يسبح ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ كذلك ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: هيبه منه، وإجلالاً وتعظيماً له، ﴿وَ﴾ هو الذي ﴿يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ جمع صاعقة ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه انتقاماً منه، ﴿وَ﴾ مع كل هذه الأدلة على قدرته وعزته، وعلمه، وإحاطته بكل شيء: ف ﴿هُم﴾ أي: هؤلاء الكفار ﴿يُجَدِّلُونَ فِي اللَّهِ﴾ في وحدانيته، وقدرته.. إلخ، ﴿وَ﴾ لا يعلمون أنه عز وجل ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ شديد الأخذ، شديد القوة، شديد الانتقام ممن كفر به وعانده وعصاه.

ولذلك، وإذا كان فيهم بقية من عقل: فعليهم أن يعلموا أنه سبحانه:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿١٤﴾

يعني: ﴿لَهُ﴾ وحده فقط ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: كلمة الحق، وهي (لا إله إلا الله) وهو وحده الذي يُدعى، فيستجيب لمن دعاه.

﴿وَ﴾ أما ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يدعونهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، ويعبدونهم فلا ينفعونهم ولا يضرّونهم، بل ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ أَبَدًا﴾ ﴿إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ أي: فمه ﴿وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ﴾.

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ آلهتهم التي يعبدونها ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: في ضياع.

وعلى هؤلاء الكفار - كما على أهل الدنيا كلها - أن يعلموا، كذلك: أنَّ سلطانه تعالى قهر كل شيء، وأنه سبحانه قد دان وسجد له كل شيء، حيث يقول تعالى مبيناً ذلك:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا هُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿١٥﴾

أي: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه، الذي لا يؤمنون به ﴿يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سجود خضوع وتذلل ﴿طَوْعًا﴾ كالمؤمنين والملائكة، ﴿وَكَرْهًا﴾ سجود قهر لسننه

وقوانين كونه، كالمنافقين والكافرين ﴿وَوَلَّاهُمْ﴾ جميعاً مؤمنين وكافرين، وهذه آية من آيات الله، حيث تسجد معهم ﴿بِالْعُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصَالِ﴾ آخر النهار، بل في كل وقت وحين.

أليس من الضروري أنه من كان كذلك: فهو يعلم الحق، ويهدي إليه؟ بلى وألف بلى، فهل من مستجيب؟

بعد أن قرّر ربنا عز وجل: أن جميع الكائنات تنقاد له وتسجد وتخضع إجلالاً لعظمته، عاد إلى الرد على المشركين، حيث يقول لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَنَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٦)

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد واسألهم ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ ثم ﴿قُلْ﴾ مجيباً عنهم بما يقرّون به ويعرفونه ﴿اللَّهُ﴾ حيث لا جواب عندهم غير ذلك. ثم ﴿قُلْ﴾ لهم بالرغم من علمكم بذلك، وإقراركم به في أنفسكم ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ تعبدونهم، وهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَنَعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وبالتالي: لا يملكون لكم ذلك، فأبي ضلال هذا الذي أنتم عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد مبكثاً ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ عندكم ﴿الْأَعْمَى﴾ عن هداية الله، وهو الكافر، ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ المهتدي بهداية الله، وهو المؤمن؟ ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي﴾ عندكم ﴿الظُّلُمَتُ﴾ الموقعة في التخبط والضلال، ﴿وَالنُّورُ﴾ الهادي إلى الطريق المستقيم؟

﴿أَمْ﴾ أنهم، أي: هؤلاء الكفار ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ وهؤلاء الشركاء ﴿خَلَقُوا﴾ خلقاً ﴿كَخَلْقِهِ﴾ سبحانه ﴿فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فعبدوا شركاءهم نتيجة لذلك؛ لا هذا، ولا هذا، ولا ذاك.

وما دام الأمر كذلك يا محمد: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فاعبدوه، ووَخِّدوه، وعظِّموه، ولا تشركوا معه أحداً.

وحتى تعبدوه، وتوَحِّدوه، وتعظِّموه اسمعوا وافهموا هذه الأمثال للحق والباطل:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ﴿١٧﴾

المثل الأول: للحق والباطل ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَاءً﴾ مطراً ﴿فَسَالَتْ﴾ به ﴿أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: كل واد بمقدار من هذا الماء، الذي قَدَرَهُ الله له، ﴿فَاحْتَمَلَ﴾ هذا ﴿السَّيْلُ زَبَدًا﴾، وهو ما على وجه الماء من الفقاقيع الهوائية، والأشياء التافهة الطافية ﴿رَابِيًا﴾ أي: عاليًا.

المثل الثاني: للحق والباطل ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ أي: ما يوقد عليه النار من الذهب والفضة ﴿ابْتِغَاءَ﴾ صناعة ﴿حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ منه، عليه أيضًا ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ أي: مثل زبد الماء.

فالماء، والذهب والفضة مثال الحق، والزبد في هذا وذاك مثال الباطل.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ مَثَلًا﴾ ﴿وَالْبَاطِلَ﴾ كذلك.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ من هذا وذاك ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يُرمى به، ولا يُنتفع منه، ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من الماء والذهب والفضة ﴿فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ ولا يضيع، ولا يُرمى به.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ويوضحها للحق والباطل، فمن يفهمها وينتفع بها: فهم المؤمنون الذين يستجيون لربهم، ومن لا يفهمها أو لا ينتفع بها: فهم الكافرون الذين لا يستجيون لربهم. وعلى هذا يقول الله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

يعني: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ وانقادوا لأمره، وأطاعوا رسوله، وأفادوا من ضربه الأمثال ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي: الجنة؛ جزاء طيباً لهم.

﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ ولم ينقادوا لأمره، ولم يطيعوا رسوله، ولم يفيدوا من ضربه الأمثال، فهؤلاء ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يملكونه، وتحت أيديهم ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ يوم القيامة ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ من هول ما يروونه من العذاب.

حيث إن ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين كفروا ﴿لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ على كل ما عملوه، لا يغفر لهم منه شيء، وليس هذا فقط، بل ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ﴾ سكنهم، ومقر إقامة الدائمة ﴿جَهَنَّمُ﴾، حقاً ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ مهادهم، والمكان مكانهم.

لقد ضرب الله تعالى الأمثال التي توضح الحق من الباطل، وتبين الهدى من الضلال، فمن لا يهتدي بها ولا يتبع هداها: فهو أعمى عن الحق بعيد عن الهداية، فهل يستوي هو ومن يؤمن بها، ويهتدي؟ ولذلك يقول ربنا عز وجل منكراً على من لم يهتد بها:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾

يعني: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا﴾ أن الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهو القرآن هو ﴿الْحَقُّ﴾ الواجب الاتباع، والذي لا شك فيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ عن معرفة ذلك، وإذا عرف لا يتبعه؟ كلا، لا يستوي هذا مع ذاك.

﴿إِنَّمَا يَنْذَرُ﴾ ويستفيد، ويتعظ، ويتبع ما نزل: هم ﴿أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب القلوب الطاهرة، والنفوس الزكية فقط.

ومن أوصاف هؤلاء الذين هم أنهم:

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلْ وَيَخْشَوْكَ رَبِّهِمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾

هذه أوصاف ثمانية وصف الله بها ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩] أصحاب العقول الكاملة:

الصفة الأولى: الوفاء بالعهد ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بَعْدَ اللَّهِ﴾ من أداء الفرائض واجتناب المحارم ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمْقَ﴾ وهو العهد، أيًا كان مع الله، أو مع الناس.

الصفة الثانية: صلة ما أمر الله به أن يوصل ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام، والإحسان إليهم، وإلى الفقراء، ونصرة المؤمنين، والدفاع عنهم.. إلخ.

الصفة الثالثة: خشية الله ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يخافونه، فلا يعصونه، بل ينفذون أوامره.

الصفة الرابعة: خوف سوء الحساب ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ في يوم القيامة، حيث يدفعهم ذلك إلى محاسبة أنفسهم وتركيتها أولاً بأول.

الصفة الخامسة: الصبر ابتغاء مرضاة الله ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: صبروا على الطاعات، وصبروا عن المعاصي، وصبروا في المحن والابتلاءات، وصبروا في ميادين الجهاد، وكل ذلك رجاء رضوان الله فقط.

الصفة السادسة: إقامة الصلاة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها على وجهها الصحيح، وداوموا على ذلك.

الصفة السابعة: الإنفاق سرًّا وعلانية في سبيل الله ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في الطاعة، ولوجه الله، وابتغاء رضوانه.

الصفة الثامنة: يقاومون السيئ بالحسن ﴿وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون السيئة من القول والفعل بالحسنة، كذلك من قولهم وفعلهم.

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: من تحلى بهذه الصفات

فله العاقبة الحسنى التي تنتظر المحسنين من أهل الدنيا. وهي:

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

أي: عاقبتهم، ونتيجة صلاحهم ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ لا يخرجون منها، ولا يُبعدون عنها، هم ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي: آمن واستقام ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾.

هذا، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أول دخولهم، وفي كل وقت كذلك ﴿مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾، يقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ دائم من الله تعالى ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: بسبب صبركم في الدنيا ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: أنعم بها من عاقبة طيبة كانت لكم بعد الدنيا، وهي الجنة.

هذا جزاء ﴿أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ﴾ [الرعد: ١٩] الذين يعلمون أن ما نزل من الله هو الحق، ويعملون به!!

وأما الأعمى عن ذلك، أو المتعامي عنه؛ فيقول الله تعالى بخصوصه:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

وهذه أوصاف ثلاثة وصف الله تعالى بها من لا يؤمنون، ولا يهتدون بما جاء من عند الله، وكل واحدة أسوأ من الأخرى:

الصفة الأولى: عدم الوفاء بالعهد ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: لا يؤمنون، ولا يؤدّون فرائض الله، ولا يجتنبون محارمه.

الصفة الثانية: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الإحسان إلى الأرحام، ونُصرة المؤمنين، وغير ذلك.

الصفة الثالثة: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإفساد في الأرض، وذلك بأي صورة من صور الفساد، كالكفر، والظلم، والمعصية.. إلخ.

يقول تعالى عن هؤلاء:

أولاً: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي الطرد من رحمة الله
ثانياً: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي الإقامة في جهنم.

وهنا قد يرد على الذهن سؤال وهو: هؤلاء الكفار، والعصاة، الذين ﴿هُمْ أَلْعَنَهُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ نراهم وقد فتح الله عليهم في الدنيا أبواب النعيم وملذات الحياة. فكيف يكون ذلك؟ والجواب:

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾﴾

يعني: مرد ذلك، وحكمته عند الله، فهو سبحانه الذي ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي: يوسعه ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيقه على من يشاء من عباده، دون راد لمشيتته، ولا معقب لحكمه سبحانه.

كذلك فإن من حكمة الله في هذا ما يقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: فقط، وعملوا لها ﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ أي: جزاء أعمالهم هذه ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]

ثم يقول الله تعالى عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

ولذلك يقول ربنا هنا: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: فرح بطر وطغيان، لا فرح شكر لله، وعرفان بالفضل.

وعلى كل حال، فما هم فيه حقير تافه بالنسبة لما عند الله لعباده الصالحين في الآخرة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بكل ما فيها ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: بالنسبة لها ﴿إِلَّا مَتَعٌ﴾ أي: شيء قليل يتمتع به صاحبه سريعاً، ثم يذهب ويزول.

ثم يحكي الله تعالى بعض أقوال الكافرين، وصور تعنتهم، فيقول:

﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ يقتصر الكافرون، من أهل مكة، عليك نزول آية: كالعصا واليد لموسى، والناقة لصالح؛ حتى يؤمنوا. ﴿قُلْ لَهُمُ إِنَّ الْآيَاتِ لَا تَفِيدُ شَيْئًا مَّنْ أَرَادَ اللَّهُ إِضْلَالَهُ؛﴾ حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾ ورجع بقلبه إليه، ولم يعاند، كما تعاندون. ثم بيّن ربنا مَن ينيب إليه، ويستحق هدايته بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨)
 ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَثَابُ﴾ (٢٩)

وصفهم رب العزة بثلاث صفات:

الصفة الأولى: الإيمان ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله، واتبعوا وحيه، والتزموا بشرعه، وهذه رأس كل خير.

الصفة الثانية: اطمئنان قلوبهم بذكر الله، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: عدم قلقها، أو اضطرابها في المكاره والأزمات؛ لأنسها بالله، واعتمادها عليه، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ﴾ وتهدأ قلوب المؤمنين.

الصفة الثالثة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أتبعوا إيمانهم بالعمل الصالح، وهو كل ما صلحت به البلاد، وسعدت به العباد.

هؤلاء ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ أي: أصابوا خيراً، ونالوا طيباً ﴿وَحَسُنَ مَثَابُ﴾ أي: مرجع حسن لهم كذلك.

وبعد أن بيّن ربنا عز وجل أنه ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وأن العبرة ليست بالآيات، بل بالهداية، يقول الله تعالى:

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ (٣٠)

أي: كما أرسلنا الأنبياء لأممهم قبلك يا محمد ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ ختامًا للرسل ﴿فِي أُمَّةٍ﴾ هي آخر الأمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: سبقت في الزمن ﴿مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾

كثيرة، وقد أرسلناك ﴿لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ﴾ الكتاب ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن، فتبلغهم بذلك رسالة الله، وقد بلغتهم هذه الرسالة، وأدبت لهم هذه الأمانة ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ حيث إنهم لما قيل لهم: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: به، ﴿وَزَادَهُمْ ثُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

﴿قُلْ﴾ لهم: هذا الرحمن، الذي تكفرون به ﴿هُوَ رَبِّي﴾ الذي أومن به وأسجد له وأدعو إليه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ربًا خالقًا رازقًا ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كل أموري ﴿رَبِّ إِلَهِ مَتَابٍ﴾ أي: الرجوع للحساب، والثواب والعقاب.

ولمّا قال لهم النبي ﷺ ذلك قالوا له: إن كنت نبيًا فأبعد عنا جبال مكة، واجعل لنا فيها أنهارًا لنزرع ما نشاء، وابعث - كذلك - لنا آباءنا الذين ماتوا، بحيث يقولون لنا إنك نبي، وبهذا: نؤمن لك، ولمّا قالوا له ذلك رد الله عليهم بقوله:

﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سِيرَتٍ فِي الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ فِي الْأَرْضِ أَوْ كَلِمٌ فِي الْمَوْتِ بَل لِّلّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْ أَن﴾ الله تعالى أنزل ﴿قُرْءَانَا سِيرَتٍ فِي الْجِبَالِ﴾ كما يقترحون ﴿أَوْ قُطِعَتْ فِي الْأَرْضِ أَوْ كَلِمٌ فِي الْمَوْتِ﴾ ليؤمنوا: لما آمنوا.

﴿بَل لِّلّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ في إيمانهم وعدم إيمانهم، ولا تعلّق له بإجابة مقترحاتهم، فهو سبحانه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

ولذلك: فلا ينبغي أن يستغرب المؤمنون من عدم إيمان الكافرين، حيث طلب بعض المسلمين تحقيق هذه الآيات ليؤمن الكافرون.

ومن هنا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من إيمان جميع الخلق، ويعلموا ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك.

ثم يقول: ﴿وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا﴾ من كفرهم وظلمهم

﴿فَارِعَهُ﴾ أي: داهية ومصيبة ﴿أَوْ تَحُلْ﴾ هذه المصيبة ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ لِيَتَّعِظُوا ويعتبروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.
وبعد هذا البيان يقول الله تعالى لحبيبه ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٢)

يعني: إن كذبوك، واستهزؤوا بك، فلست وحدك ف ﴿لَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ولك فيهم الأسوة والقذوة أي: لا تهتم بهذا، وأما أمم هؤلاء الرسل ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم، وأَجَلْتُ عقابهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بعقابي، وياله من عقاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان أليماً شديداً.

والمكذبون من أمتك مصيرهم: مصير هؤلاء.

وبعد هذا يذكر سبحانه سُنته فيمن يريد إضلاله وعدم هدايته، فيقول جل وعلا:

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَل زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (٣٣)

أي: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ﴾ رقيب ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، وهو الله سبحانه وتعالى، كالأصنام التي يعبدونها؛ حيث إنهم ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ من هذه الأصنام، ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي: أعلمونا بهذه الأصنام التي أشركتموها مع الله، وقولوا لنا: ماذا تفعل من النفع والضرر؟

ثم قل لهم: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ وهو الله وتُعلمونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ من هؤلاء الشركاء ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كلها، وهي لا وجود لها؟ وقل لهم - كذلك -: ﴿أَمْ﴾ تسمونهم ﴿بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ فقط، يعني أسماء في الخيال لهذه الأصنام، لا وجود لها في الحقيقة؟ إنه لا هذا، ولا ذاك.

﴿بَلْ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ وحب إليهم كيدهم للإسلام ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: صدُّوا عن الهداية، وهي سبيل الله فقط.

والحقيقة أنه: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ غير الله تعالى.

ولذلك: فمن أراد الهداية فليطلبها من الله، فهو الهادي وحده إلى سواء السبيل.

هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، وزين لهم كيدهم للإسلام، وصدُّوا عن سبيل الله:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾^(٣٤)
أي: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر، وأنواع البلاء والمحن،
﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ الذي ينتظرهم، وصاترون إليه، وواقع بهم ﴿أَشَقُّ﴾ من عذاب الدنيا وأصعب.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من عذابه في الدنيا، أو في الآخرة ﴿مِنْ وَاقٍ﴾ يقيهم منه، ويبيد عنهم عنه.

ثم تكون البشارة لأهل الإيمان، الذين اتقوا ربهم، والتخويف لأهل الكفر الذين عصوا ربهم بقوله سبحانه:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمُهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾^(٣٥)

أي: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ صفة الجنة ﴿الَّتِي وُعدَ﴾ بها ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ فيما نتلوه عليكم من الكتاب العزيز، وما فيه من أخبار الصالحين أنها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت غرفها ﴿الْأَنْهَارُ﴾، كما أنها ﴿أُكُلُهَا﴾ أي: ما يؤكل منها وفيها من مطعومات ﴿دَائِمٌ﴾ لا ينقطع أبداً ﴿وَزُلُمُهَا﴾ لا يُسَخ، ولا يفنى أبداً.

﴿تِلْكَ﴾ الجنة هي ﴿عُقْبَى﴾ أي: عاقبة، وجزاء ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ربهم بالإيمان، وعمل الطاعات، والبُعد عن المعاصي.

﴿وَوَ﴾ أما ﴿عُقْبَى الْكَافِرِينَ﴾ ومصيرهم، ومقر إقامتهم، فهي ﴿النَّارُ﴾ لا يخرجون منها فيهربون، ولا يموتون فيها فيستريحون.

وإذا كان هذا الكلام عن المؤمنين والمشركين، فإن هناك فريقاً آخر من الناس، يقول عنهم ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٦﴾﴾

يعني: وأهل الكتاب ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ كالنصارى والإنجيل منهم فريق ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن؛ لموافقته ما عندهم في كتبهم.

ولكن ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: من أحزابهم وفرقهم التي تعاديك وتعادي دعوتك ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ كإنكارهم نبوتك، ونحن نُعَلِّمُكُم بهؤلاء وهؤلاء.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ فيما أُنْزِلَ إِلَيَّ ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وحده ﴿وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ غيره، ممّا لا ينفع ولا يضر، و﴿إِلَيْهِ﴾ وحده، وإلى دينه وشريعته ﴿أَدْعُوا﴾ الدنيا كلها ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: مرجعي في يوم القيامة.

ثم يقول ربنا عز وجل:

﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

أي: ﴿و﴾ كما أُنْزِلْنَا الكتب السابقة على الأنبياء السابقين بلغات أقوامهم ﴿كَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ﴾ أي: هذا الكتاب عليك ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، لتحكم بين الناس كلهم بما جاء فيه، حتى ولو خالفت ما في الكتب السابقة.

﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولم تحكم بما جاء في القرآن بين الناس ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الثابت، وضرورة الحكم به ﴿مَا لَكَ﴾ أي: ليس لك في هذه الحالة ﴿مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يدفع عنك ما يحل بك.

وفي هذا تهديد لكل من لا يعمل بكتاب الله، ويتبع ما جاء في غيره.

ولمّا عاب أهل الضلال النبي ﷺ بزواجه، وأنه لو كان نبياً لتفرغ لعبادة ربه، وترك الدنيا، ردّ الله عليهم بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
بِثَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٣٨)

أي: لا تهتم بأقوالهم هذه يا محمد، فلست بدعًا من الرسل، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا
مِّن قَبْلِكَ﴾ يجري عليك ما جرى عليهم؛ حيث ﴿جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ لأنهم
بشر وقدوة، وأنت كذلك جعلنا لك أزواجًا وذرية.

ثم إنهم كما عابوا عليك ذلك وليس لهم، وطلبوا منك أن تأتي بما اقترحوا من آيات
وليس لهم أيضًا:

إذ أنه ﴿مَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ حتى ولا أنت ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِثَايَةٍ﴾ يطلبها قومه ﴿إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ في ذلك.

ولما كان ﷺ يخوفهم بعذاب الله: استعجلوه إتيان هذا العذاب، ليقضي عليهم، إن
كان صادقًا فيما يدّعيه، ردّ عليهم المولى بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي: نهاية ﴿كِتَابٌ﴾
مكتوب فيه تلك النهاية، لا يُراد عليه، ولا يُنقص منه، وليست بطلبكم أيها الكافرون.

وكذلك: لَمَّا قالوا إن محمدًا يأمر أصحابه اليوم، ثم يأمرهم غدًا بخلافه، كما حدث
في استقبال القبلة مثلاً، ولو كان نبيًا ما فعل ذلك، رد عليهم المولى بقوله:

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣٩)

أي: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ﴾ بالنسخ ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من الأحكام ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ فيُثَبِّتُها كما
هي؛ لِعَلَّ وَحَكَمَ، قد تُعْلَم وقد لا تُعْلَم، فمرّد الأمر في هذا وذاك إلى الله وحده، وليس
إلى محمد ﷺ، ولا إلى غيره.

كما أن ﴿وَعِنْدَهُ﴾ أي: المولى ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصل المكتوبات كلها،
وذلك في اللوح المحفوظ.

ثم يواسي الله نبيه والمؤمنين معه، ويشدّ من عزائمهم، بقوله:

﴿إِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا
الْحِسَابُ﴾ (٤٠)

يعني: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ به، من العذاب ﴿أَوْ نُوَفِّئَنَّكَ﴾ قبل أن ترى ذلك فيهم: فلا يَهْمَنَّكَ إعراضهم عنك، وعدم إيمانهم بك، وتصديقهم لك، ﴿فَإِنَّمَا﴾ فقط ﴿عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ لرسالتنا ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ والجزاء لهم على مواقفهم هذه. إنهم ليسوا عقلاء:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤١)

يعني: ﴿أ﴾ عموا ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ بعيونهم ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي: أرضهم؛ أرض الكفر ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ من جوانبها، بما يفتح المسلمون منها، فتزيد أرض الإيمان، وتنقص أرض الكفر؟

﴿وَاللَّهُ﴾ عز وجل هو الذي ﴿يَحْكُمُ﴾ بذلك، ويقضي به، وينصر دينه و ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ ولا راداً لقضائه، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ في الآخرة، بعد انقضاء هذه الدنيا.

وهل يظن أولئك أنهم أصحاب المكر والكيد والدهاء وحدهم؟ لا، فقبلهم كثير:

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾ (٤٢)

أي: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة، وكادوا، وعادوا دعوة الله فما فلاحوا، وما نجحوا، فيما أرادوه، وهؤلاء كذلك لا يُفْلِحُونَ مهما مكروا، ومُكْرُهُمْ لا قيمة له، ولا أثر، ولا وزن، ﴿فَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿الْمَكْرُ﴾ بهم، والكيد الحقيقي لهم ﴿جَمِيعًا﴾.

لأنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير أو شر، ولا يعلمون هم شيئاً. ﴿وَسِعَعُ الْكُفْرُ﴾ يوماً ما، حيث لا يفيد العلم صاحبه شيئاً ﴿لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾ لمن العاقبة الحسنة، لهم أم للمؤمنين أتباع الرسل؟

خَتَامًا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣)

يعني: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لك يا محمد صراحة ﴿لَسْتَ﴾ نبيًا ﴿مُرْسَلًا﴾
من عند الله، إنما أنت مدَّعٍ للنبوَّة والرسالة، ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: تكفيني شهادة الله لي أني رسول إليكم، وأنكم تكذبوني.

وأيضًا: شهادة ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ من أهل الكتاب الذين قرؤوا في كتبهم
أنِّي الرسول الخاتم، فأسلموا وآمنوا لي واتبعوني.

وبهذا تنتهي السورة الكريمة.
